



تفف السيارة في نهاية طريق مزفت قرب موقع أثري في الريف السوري المحرر، وينزل بعض الرجال يستطعون المكان
مشياً على الأقدام..

تبأ المباني الأثرية بالظهور، وتصعد الطريق بهم قليلاً ثم تنزل ثانيةً بعض الشيء، فتكشف وادياً واسعاً ينتشر فيه على مذ
البصر عدد كبير من المقابر الأثرية القديمة، وكأنما يدخلون المدينة المفقودة التي طالما شوّقتنا قصتها ونحن صغار..

لا يشاهدون مدينة تسكنها الأشباح وتعشّش فيها بيوت العنكبوت كما يتوقعون، بل يصعقون بمشهد أطفال يركضون ونساء
يتوارين وشيوخ يتذكرون ورجال يقبلون عليهم رويداً والريبة والخوف ترتسم على وجوههم.

لقد التجأ هؤلاء المؤسأء من عالم القرن الواحد والعشرين إلى عالم القرن الثاني قبل الميلاد، لعلهم يجدون الأمان في ذلك
الزمن الأغبر بعد أن عدموه في عصر الحضارة وحقوق الإنسان..

التجؤوا من عالم الصامتين على ذبحهم، الموتى السائرين على الأرض، إلى عالم الموتى المدفونين تحت الأرض، لعل أولئك
يفيقون ويتكلمون..

وما أن يتقدم الرجال نحوهم حتى يبادر أكثر هؤلاء المؤسأء إلى الاختفاء في المقابر والسراديب خوفاً من غدر غادر، فقد
لفتحهم كثيراً رياح الغدر.

وما أن يرفع أحد الرجال آلة التصوير يريد التقاط صور ينقل بها معاناة هؤلاء المساكين إلى العالم لعله يتوقف عن صمته
وإلى أهل الخير لعلهم يمدون يد عون إليهم، ما أن يرفع المصوّر آلة التصوير حتى يقفز إليه أكثر من واحد منهم فزعين
يرجونه أن يتوقف، لأن طائرات "الميغ" ستأتيهم وتصب عليهم قذائفها إذا عُرف مكانهم.

وما لجؤوا إليه إلا هرباً من حريم القصف. تركوا ديارهم ولجؤوا إلى هذه المقابر الأثرية طلباً للأمان وهرباً من حريم مدافع
وصواريخ وطائرات النظام المجرم الذي لم يستخدم يوماً أياً منها ضد اليهود المحتلين وأدّخرها لشعبه من المدنيين العُزل.
جموع من الناس المشردين عن بيوتهم في ثياب رثة يهيمون بين هذه الأطلال، أكثرهم من الشيوخ والنساء والأطفال،
فالشباب خرجن للقتال دفاعاً عن أهلهم.

وقد نصبوا بعض "الشوارد" على هذه القبور لعلها تدفع عنهم شيئاً من بلال المطر وبرد الشتاء.
أي غطاء يغطيهم في هذا البرد القارس وأي طعام يأكلون وأي ماء يشربون!

يستأنفهم طبيب من الركب أن يستطلع إحدى هذه المقابر التي يسكنونها فلا يمانعون بعد أن اطمأنوا إليه..

ينزل درجاً إلى عمق المقبرة، فيجد رضيعاً ملفوفاً في رداء مهترئ ممدداً على أرض المقبرة تحت سطح الأرض بمترین أو ثلاثة، ولا يكاد يوجد هناك مقدار من الأكسجين يكفي لتنفسه..

يحس بالعبثية والسخرية والمرارة وهو يوصيهم بتهوية المكان من أجل الرضيع الصغير..

هل كان عليه أيضاً أن يوصيهم بتغذيته جيداً وهم لا يجدون لقمة العيش!

أم يوصيهم بتدفتها من هذا البرد القارس وهم جالسون في العراء لا تؤيدهم إلا جدران هذه المقابر القديمة!
يعود أدراجه يجر قدميه صاعداً الدرجات المتكسرة إلى الخارج لا يدرى يبكي من:

الشهداء الذين يذبحون أو يُقتلون أو تُهدم بيوتهم على رؤوسهم، أم الجرحى الذين ينزفون حتى الموت أو يقضون بلا علاج، أم الأسرى الذين يسومهم المجرمون سوء العذاب في كل ساعة، أم المرابطين تحت قصف المدافع والصواريخ والطائرات التي تُغير عليهم في كل ساعة، أم اللاجئين الهاجرين من الجحيم الذين لا يجدون مأوى ولا مأكل ولا مشرب!

ومن يستطيع ألا يبكي هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء!..

وما أن يخرج من هذا القبو حتى يأخذوه إلى فتاة مريضة في أحد أطراف هذا المخيم الحجري، وقد فتك بها التهاب شديد في عظم الساق فأتلف ساقها وأقعدها، يطلبون العون في علاجها.

بعد هذا المشهد الأليم لا بد من **كلمة**، ليس والله تقليلاً من معاناة بعض أهلانا ولكن إنصافاً لمعاناة من هو أكثر بؤساً منهم،
ورسمياً لصورة غائبة بصورة حاضرة.

كثيراً ما تناقل الناس أخبار اللاجئين السوريين ومعاناتهم في تركيا، وفي لبنان، وفي الأردن، في مخيم الزعتري وغيره من مخيمات البوس، وزاروا أهلانا في المخيمات وسائل الدموع ألمًا عليهم، والحق أن وضعهم مؤلم ويستحق هذه الدموع ويستحق مدي العون؛ العائلة الكاملة تقيم في خيمة أو غرفة وتعيش على الكفاف..

ولكن بالمقارنة مع أهلانا اللاجئين في الداخل الهائمين على وجوههم من أرض إلى أرض فراراً من الموت الذي ينصب عليهم أينما حلوا، وقد انقطعت بهم السبل بلا مأوى ولا مأكل ولا مشرب، بالمقارنة مع هؤلاء فأهلانا في مخيمات الخارج على الأقل آمنون، لا تنزل عليهم القذائف "والبراميل"، ولديهم سقف يُظالهم، ولا يموتون جوعاً.

إن الحقيقة التي لا مراء فيها أن لاجئي الداخل أوضاعهم مؤلمة، أكثر كثيراً من لاجئي الخارج، وأحوالهم تُبكي الحجر وتقطع القلوب..

اللاجئون السوريون الداخليون أكثر عدداً وأصعب حالاً من اللاجئين الخارجيين بأضعاف، جاوزوا خمسة ملايين بالمقارنة مع نحو نصف مليون لاجئ في الخارج. وإذا كان أولئك تسكن العائلة منهم في خيمة أو غرفة، فهؤلاء المحظوظون منهم ينزلون في المساجد والمدارس، والآخرون يفترشون الحدائق والملاعب والطرقات، يلفحهم برد الشتاء القارس ويعذّبهم الجوع، وفي أحسن الأحوال يتقاسمون لقمة العيش مع أهل الأحياء المحيطة، ولا يأمنون القصف الذي يلاحقهم من مكان إلى مكان، بالإضافة إلى الملاحقة والاعتقال للناشطين منهم.

شعب سوريا المجاهد ماض في ثورته حتى النصر بإذن الله. والخيرون يعملون دون كلل ولا ملل.

بعض الخيرين الثقة في هذه المنطقة قد بادروا إلى إنشاء جمعية خيرية لإغاثة الناس ومساعدتهم والنهوض بالمنطقة، وقد بدؤوا بإحصاء هؤلاء اللاجئين والعمل على إغاثتهم، لكنهم يحتاجون من يقف معهم ويدعمهم، وسيجدون بإذن الله من يؤازرهم، فالخير في هذه الأمة إلى يوم الدين.

المصادر: